الفصل فى نبوة المتنبي

من شعره

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

– ٣ –

ولنعد إلى النظر فى قصيدة المتنبي :

كم قَتيلٍ كما قُتِلْتُ شهيدِ بياضِ الطُّلَى ووردِ الخدود

فقد ابتدأها المتنبي بالنسيب على عادة الشعراء ، وتدله فى ذلك النسيب كل التدله ، وقتل نفسه فيه من فرط الصبابة والوجد ، ثم ذكر أيام الصبا والجهل وحنَّ إليها ، وتفنن فى وصف الحسان اللاتى نسب بهن أيما تفنن

ولم يكفه ذلك التدله فى النسيب ، والتفنن فى وصف النساء ، بل عمد إلى الخمر ينسب بها أيضاً ، ويتدله فيها بأكثر مما تدله فى نسيبه

ولا شك أن هذا الأسلوب فى النسيب ووصف الخمر ، لا يتفق مع ذلك الأسلوب الذى ينسب إليه فى دعوى النبوة ، ولا يمكن أن يحصل هذا وذاك من شخص واحد ، لاختلاف نزعتهما ، وتباين المشارب فيهما ، واتجاه كل منهما إلى غاية تخالف الأخرى ، فهو فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة رجل جد وصلاح ، مبعوث إلى هذه الأمة الضالة المضلة ، ويريد أن يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ؛ وهو فى قرآنه يدعو إلى الايمان ، ويحارب الالحاد ، ولكنه فى شعره هازل خليع ، يدعو إلى الفسق والفجور ، وينغمس فى حمأة الضلال ، ويبلغ من أمره أن يستهتر بالايمان والتوحيد إلى هذا الحد فى قوله :

يترشفن من فمي رَشَفاتٍ هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وهذا البيت يذكر فيما يؤخذ على المتنبي من الالحاد فى الدين فكيف يتفق أن يأتى فى شعره وهو فى عهد يدعو فيه إلى التوحيد ويحارب الألحاد ويزعم فيه أنه نبى مرسل ؟

ثم يبلغ أيضاً من أمره عند ما أخذ فى وصف الخمر أن يقول فيها هذا القول :

كلُّ شيء من الدماءِ حرامٌ شربُهُ ما خلا دم العنقود

فأى نبى هذا الذى يحلل الحرام ويحرم الحلال ؟ وأى ضلال يحاربه وهو يدعو إلى هذا الضلال ؟

وقد جاء البيت الأول فى بعض الروايات :

يترشفن من فمى رَشفاتٍ هنَّ فيه حلاوةُ التوحيد

وهو فى هذه الرواية أخف فى الاستهتار من روايته الأولى وهى الرواية المشهورة

فلما جاوز فى قصيدته هذا كله ، ووصل الى مقصوده من الفخر بنفسه وشكوى حاله ، وحمل نفسه على تحمل الصعاب فى سبيل آماله ، كانت آماله أشياء أخرى دنيوية ، ولم تكن هى الآمال التى تنسب اليه فى دعوى النبوة ؛ فليس لهذه الآمال ذكر هنا ، ولا تشم لها فيه رائحة ، وانما هو هنا رجل يسعى فى اكتساب الجد ، ويكد فى طلب الغنى والمال ، ويشكو من اخفاقه فى هذا الطلب مع كثرة سعيه فيه :

ضاق صدرى وطال فى طلب الرز ق قيامى وقلَّ عنه قعودى

أبداً أقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمتى فى سُعُود

وهو أبداً مولع بذلك الاستهتار حتى فى مقام الجد ، فاذا أمر بطلب العز لا يفوته أن يقول إنه خير من الذل ولو كان فى جنة الخلد ، وأن يفضله ولو كان فى لظى على الذل

فاطلب العزَّ فى لظى وذرِ الذ لَّ ولو كانَ فى جنان الخلود

فمثل هذا لا يصح أن يكون من شخص يدعى النبوة ، ويدعو الناس الى العمل الذى يوصلهم الى نعيم الله فى الجنة . ولا فرق بينه فى هذا وبين ذلك الشاعر الجاهلى الذى سبقه الى ذلك المعنى ، وكان له من جاهليته ما يهون من أمره فيه ، وهو ذلك الشاعر الذى يقول :

حكم سيوفك فى رقاب العذل وإذا بليتَ بدار ذلٍّ فارحل

دار النعيم بذلةٍ كجهنم وجهنم بالعز أكرم منزلِ

وكذلك هذا الفخر لا يليق بمن يدعى النبوة :

إنما كن معجباً فمُعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا تربُ النَّدى ورَبُّ القوافى وسِهامُ العدى وغيظ الحسود

وهكذا نخرج من دراسة هذه القصيدة بيقين لا شك فيه ، أنها لا تتفق مع تلك النبوة المزعومة للمتنبي ، فاما أن تكون هذه القصيدة مختلقة عليه ، وإما أن تكون تلك النبوة مكذوبة . وإذا كانت هذه القصيدة للمتنبي باتفاق الفريقين المختلفين فى أمر نبوته ، فأن تلك النبوة تكون هى المكذوبة قطعاً

* * *

وهذه قصيدة ثانية للمتنبي ، قالها فى ذلك العهد الذى ينسب إليه فيه إدعاء النبوة :

ضيفٌ ألمَّ برأسي غير محتشم ... والسيفُ أحسن فعلاً منه باللمم
ابعِدْ بعدتَ بياضاً لا بياض له ... لأنت أسودُ فى عيني من الظلم
بحبِّ قاتلتي والشيبِ تغذيتي ... هواى طفلاً وشيبي بالغ الحلم
فما أمرُّ برسم لا أسائله ... ولا بذات خمار لا تُريق دمي
تنفَّست عن وفاءٍ غير منصدع ... يوم الرَّحيل وشعب غير ملتئم
قبلتها ودموعي مزجُ أدمعها ... وقبلتني على خوف فماً لفم
فذقت ماء حياةٍ من مُقبَّلها ... لو صاب تربا لأحيا سالف الأمم
ترنو إلىَّ بعين الظبي مُجهشةً ... وتمسح الطَّلَّ فوق الورد بالعنم
رُويدَ حكمكِ فينا غير منصفةٍ ... بالناس كلِّهم أفديك من حكم
أبديتِ مثل الذى أبديتُ من جزعٍ
ولم تُجِنِّي الذى أجننتُ من ألم
إذن لبزَّكِ ثوبَ الحسن أصغره ... وصرتِ مثلي فى ثوبين من سقم
ليس التعلُّلُ بالآمال من أربي ... ولا القناعةُ بالإقلال من شيمي
ولا أظن بنات الدهر تتركني ... حتى تسدَّ عليها طُرقها هممي
لم الليالى التى أخنت على جدتي ... برقة الحال واعذرني ولا تلم
أرى أناساً ومحصولى على غنم ... وذكر جودٍ ومحصولى على الكلم
وربَّ مال فقيراً من مُروءته ... لم يُثر منها كما أثرى من العدم
سيصحب النصلُ مني مثل مضربه
وينجلى خبري عن صمَّة الصَّمم
لقد تصبرتُ حتى لاتَ مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركنَّ وجوهَ الخيل ساهمةً ... والحربُ أقوم من ساقٍ على قدم
والطعنُ يحرقُها والزجرُ يقلقها ... حتى كأنَّ بها ضرباً من اللمم
قد كلَّمتها العوالى فهى كالحةٌ
كأنما الصَّابُ معصوب على اللجم
بكل مُنصلتٍ ما زال مُنتظري ... حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخٍ يرى الصلوات الخمس نافلةً ... ويستحل دمَ الحجاج فى الحرم
تنسى البلادَ بروق الجوِّ بارقتي ... وتكتفى بالدم الجارى عن الدِّيم
ردِى حياضَ الرَّدى يا نفس واتركى
حياض خوف الردى للشاء والنَّعم
إن لم أذرْكِ على الأرماح سائلةً ... فلا دعيت ابن أمِّ المجد والكرم
أيملك الملكَ والأسياف ظامئةٌ ... والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآنى ماءً مات من ظمأٍ ... ولو مثلتُ له فى النوم لم ينم
ميعادُ كلِّ رقيق الشفرتين غداً
ومن عصا من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدى بها لهم ... وإن تولَّوا فما أرضى لها بهم

وقد افتتح المتنبي هذه القصيدة بذم الشيب الذى ظهر فيه قبل أوانه ، فحل فى رأسه ضيفاً ثقيلاً غير محتشم ، وبدا بياضه فى عينه أسود من الظلم ، وقد اجتمع عليه بذلك أمران صارا له كالغذاء : حب مبكر فى عهد الطفولة ، وشيب مبكر فى بلوغه الحلم . ولا شك أن من يتبرم بالشيب هذا التبرم لا تحدثه نفسه بادعاء النبوة وما يلزم لها من إظهار الصلاح والتقوى ، والفرح بالشيب إذا أقبل ، لأنه كما قال بعض الحكماء : زهرة الحنكة ، وغرة الهدى ، ومقدمة العفة ، ولباس التقوى . وأين قول المتنبي فى هذا من قول دعبل بن علي

أهلا وسهلا بالمشيب فأنه ... سمة العفيف وحلية المتحرج
ضيف ألمَّ بمفرق فقريته ... رفض الغواية واقتصاد المنهج

فمثل هذا هو الذى كان يقوله المتنبي فى الشيب لو صح ما ينسب إليه فى دعوى النبوة ، وهو الذى يتفق مع الغاية التى تنسب إليه فيها

ثم مضى المتنبي يتغزل على أسلوبه فى قصيدته الأولى ، يسأل كل رسم ، ويجرى فى حب متنقل وراء كل ذات خمار ، وهو حب شهوى كحب ابن أبى ربيعة وغيره من الشعراء الذين تستهويهم كل ذات جمال ، ولا يعرفون فى حبهم شيئاً من الوفاء ، بل يتحدثون عن وفاء النساء لهن ولا يفون ، كما تحدث المتنبي عن ذلك فى قوله :

تنفست عن وفاء غير منصدع ... يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

وقد يتفق لنبي أن يسمع هذا النوع من الغزل إذا كان بريئاً كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم فى سماعه قصيدة كعب بن زهير

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يُفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكى قصر منها ولا طول
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول
إخالها خلة لو أنها صدقت ... موعودها أو لو ان الوعد مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل

ولكن فرقا كبيرا بين سماع هذا النوع من الغزل وإنشائه ، ورب شيء يقبل من شخص ولا يقبل من شخص أعلى منه ،

ورب حسنات فى ذلك تعد سيئات ، ورب سيئات تعد حسنات .
ولا شك أن مثل هذا الغزل لا حرج فيه على كعب رضى الله عنه ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الاعتبار ، وإن لم يكن من شأنه هو أن ينشئه

ثم اقتضب المتنبى نسيبه اقتضابا ، وابتدأ مقصوده من قصيدته بقوله :

ليس التعلل بالآمال من أربى ولا القناعة بالاقلال من شيمى

فاذا هو فيه طالب دنيا لا أكثر ولا أقل ، وإذا به لا يرضى فى ذلك بالقليل ، وينفر من صفة القناعة التى حث عليها جميع الأنبياء قبله

وهو فى ذلك أيضا ثائر على دهره الذى يفقر مثله على مروءته وشجاعته ، ويغنى سواه على فقره من المروءة والشجاعة ؛ ثائر على تلك الدول التى أقامها فى عصره خدم العباسيين الذين كانوا يجلبونهم أرقاء فيصبحون ملوكا على الناس ، فهو يقيم الدنيا ويقعدها من أجل تلك المهازل فى نظره ، ويرى نفسه أعلى شأناً من هؤلاء الخدم ، وأحق منهم بهذا الملك الذى استأثروا به لأنفسهم

وهو هنا لا يتحدث عن عدل وجور كما يتحدث فيما ينسب فى دعوى نبوته ، بل يتعطش إلى الحرب والقتال كما يتعطش كل فارس جبار يعشق سفك الدماء ونشر الفساد فى الأرض

ولا يتحدث كذلك عن إيمان وكفر ، بل يتحدث عن خدم أقاموا لهم ملكا هو أحق به منهم لما امتاز به من المروءة والشجاعة عليهم

ثم تراه لا يقلع فى هذه القصيدة عن استهتاره ، وأخذه فيما يدل على ضعف دينه ، فيقول

بكل مُنصلتٍ مازال مُنتظرى حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج فى الحرم

فالذى يقول هذا لا يمكن أن يأخذ وسيلته إلى الناس دعوى النبوة ، لأنها تقتضى منه شيئاً آخر غير هذا الاستهتار ، وتواضعاً فى القول غير هذا التجبر ، واقتصادا فى الحديث عن النفس غير هذ الاسراف فى الفخر

وسبيل هذه القصيدة بعد هذا سبيل القصيدة السابقة فى القطع بكذب هذه الدعوى على المتنبى ، لأنها تظهره فى ذلك العهد بخلاف المظهر الذى يظهر به فيما ينسب إليه فى دعوى النبوة وادعاء مثل هذه الدعوى من المتنبى فى علمه وذكائه تقتضى منه الحيطة فى أمره ، وتوجب عليه ألا يظهر بين الناس بهذا المظهر فى شعره ، حتى يصدقه الناس فى دعواه ، ويلتئم حاله فيها التئاما يخدعهم فيه

ويجب علينا بعد هذا أن نأخذ فى هذا اللقب بما نقله ابن جنى عن المتنبى نفسه ، وقد ذكرناه فيما سبق ، فلا نعيده هنا ، ولكنا نذكر فى ذلك مذهباً للأستاذ « محمود شاكر » رأى أنه أقرب إلى الصدق ، وأولى بالاعتبار ، وهو أن المتنبى نبز هذا النبز من أجل أنه كان فى أول أمره متورعا فى خلقه لا يخرج عن حدود الوقار ، متزمتاً لا يلين للشهوات ولا يلقى إليها مقاده مترفعاً عن سفساف الأخلاق متمسكا بمثاليها ، آخذا نفسه بالجد الذى لا يفتر ؛ وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها ، فما كذب ولا زنا ولا لاط ، ولا أتى أمراً منكرا يؤخذ عليه ، أو يُزَنُّ به . واستمر على ذلك حياته كلها ، وخالف الأدباء والشعراء من أهل عصره فما شرب الخمر ولا حمل وزرها ، ولولا اضطراره فيما ترى لما حضر مجلسها . وكان الأدباء والشعراء فى ذلك الوقت أهل شراب ومعاقرة ولهو وهزل وباطل ، فلما وجدوا ما هو فيه من التعفف والتورع ، ووقعوا على كثرة دوران أسماء الأنبياء فى شعره ، وتشبيهه نفسه بهم ، نبزوه هذا النبز ، ولقبوه المتنبى يريدون المتشبه بالأنبياء

ولا شك أن هذا غلو من الأستاذ فى أمر المتنبى ، وقد روى عن بعضهم أنه عاشره فما رآه كذب ولا زنا ولا لاط ، ولكن هذا لا يكفى لأن يجعل منه الرجل الصالح الزاهد المتورع الذى يصفه الأستاذ محمود . على أن هذا الاشتقاق لا يدل على التشبه وإنما يدل على الادعاء ، وقد جاء فى القاموس (وتنبأ ادعى النبوة ومنه المتنبىء أحمد بن الحسين) وإنما يقال فى ذلك تأله ، لأن التأله التنسك والتعبد ، ولم يلصق هذا اللقب بالمتنبى إلا لأجل الكيد به ، وإيهام أنه ادعى النبوة ، ولهذا كان يكرهه المتنبى . ولو كان لهذه الأغراض المذكورة لفرح به وهش له ، والخطب فى هذا سهل بينى وبين صديقى الأستاذ محمود شاكر ، بعد اتفاقنا على أن هذه النبوة مختلقة على المتنبى ؛ وإنى لا أحب أن أثير فى هذا جدالاً بينى وبينه ؛ ولعله يتغاضى عن هذا الخلاف القليل بيننا ، ليكون ما ذكرناه هو القول الفصل فى هذا الموضوع حقا

عبد المتعال الصعيدى